ما بين الفعل والبناء الاجتماعي: بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو

أحمد موسى بدوي(*)

باحث في العلوم الاجتماعية ـ مصر.

ملخص

يهدف هذا المقال إلى استعراض الشروط التاريخية والفكرية والأسس النقدية التي انطلق منها المشروع العلمي الغني والمتنوّع لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو (Pierre Bourdieu) (١٩٣٠ ــ ٢٠٠٢)، ومحاولة الوقوف على الخطوط العامة لنظرية الممارسة الاجتماعية، التي تعدّ أهم نظرياته السوسيولوجية، وذلك بتوضيح كيف تمكن بورديو من عبور الفجوة بين نظريات الفعل، والنظريات البنائية، وكيف طوع أدواته التفسيرية بأسلوب يجمع بين العمق النظري والكفاءة المنهجية. ولتحقيق هذا الهدف نتناول في هذا المقال عرضاً لنظرية الممارسة الاجتماعية، ببحث الأساس النقدي الذي بنيت عليه، والمخطط العام لها، ثم نتناول المفاهيم الأساسية للنظرية، ونقدم في نهاية المقال أهم المراجعات النقدية التي تمت على هذه النظرية.

المصطلحات الأساسية: الممارسة (Practice)، المجال (Field)، الهابيتوس (Habitus)، الرأسمال النوعي (Specific Capital)، الانعكاسية (Reflexivity).

أولاً: الأساس النقدي لنظرية الممارسة

في أعقاب الحرب العالمية الأولى وقبيل الثانية، نشأت أزمة التفسير في العلوم الاجتماعية، فالنظريات الكلاسيكية، وخاصة البنائية الوظيفية، لم تستطع كما تزعم، أن تتنبأ بما حدث في أوروبا، أو حتى تستطيع تفسيره، وأصبحت هذه الأزمة، إحدى مشكلات فلسفة العلم، وحامت الكثير من الشكوك حول العلوم الاجتماعية، وبدأ البعض ينفي صفة العلمية عن الدراسات الاجتماعية، وبسبب ذلك نشأت الحاجة إلى فلسفة تدعم موقف هذه العلوم، تُجَدِّدُها وتمنحها البقاء في حلبة العلم. وفي عام ١٩٣٤، ظهر مؤلفان في فلسفة العلم، يعتبران كما ترى يمنى طريف، علامة فارقة في هذا الميدان: المؤلف الأول هو **منطق البحث العلمي** لفيلسوف العلم الألماني كارل بوبر (Karl Popper) (١٩٠٢ ــ ١٩٩٤)، أما

(*) البريد الإلكتروني: am_badawi@yahoo.com.

المؤلف الثاني فهو **الفكر العلمي الجديد** للفيلسوف ومؤرخ العلم الفرنسي غاستون باشلار (Gaston Bachelard) (١٨٨٤ ــ ١٩٦٤)، وكلا المؤلفين يحاول «تثوير التقدم العلمي بطريقته» (الخولي، ٢٠٠٠: ٤٠٥). قدّم باشلار، رؤية جديدة لتاريخ العلم، من خلالها، لم يعد التقدم العلمي خطياً يمثل عملية متصلة من التراكم المعرفي، وإنما هو عملية دائمة من اكتشاف الخطأ وتصحيحه. وإن كل ممارسة علمية جديدة تتطلب هجراً لنظرية المعرفة السابقة عليها، وتُحْدِث انقطاعات حادة معها. ويبدو أن العلوم الاجتماعية، كانت في أمسّ الحاجة إلى هذه الرؤية.

وقد صادفت أزمة التفسير التي تمر بها هذه العلوم، ظهور نجم بيير بورديو، الذي انفعل بها، محاولاً صنع الاختلاف، فتأبط باشلار مؤرخاً، وتأبطه ابستيمولوجياً. والمتأمل لمشروع بورديو لا يصعب عليه الكشف عن هذه الملازمة، فالرؤية الجديدة لباشلار، مكّنت بورديو من التمهيد لمشروعه بالقطيعة مع المسلمات الرئيسية التي قام عليها التراث السوسيولوجي منذ لحظة التأسيس، فكانت معارضته لنقد القسمة بين الموضوع والذات، ثم نقده لتقسيم العلوم الاجتماعية، ثم معارضته للفصل بين نظرية العلم الاجتماعي ومنهجه.

١ ـ نقد القسمة الديكارتية

إن مشروع بورديو، كما يرى جورج ريتزر، هو محاولة لـ «تجميد ورفض القسمة الابستيمولوجية المركزية التي وضعها ديكارت ما بين الموضوعية والذاتية، أو بعبارة بورديو التعارض اللامنطقي بين الفردي والجمعي (Ritzer, 1996: 400)، أو كما يفضّل أحياناً: «التعارض ما بين الفينومينولوجيا الاجتماعية والفيزياء الاجتماعية (Bourdieu, 1993 a: 3). ويرى أن الانحياز الفكري إلى أحدهما، هو أحد مشكلات علم الاجتماع التأسيسي، فالنزعة الذاتية تقدم شكلاً من المعرفة عن العالم الاجتماعي، يتمركز حول الخبرة الأولية وتصوّرات الأفراد، وتجاهل الشروط الموضوعية المحددة والمؤثرة في هذه المعرفة. وعليه، فقد انتقد بورديو التيارات الفكرية الذاتية، كالفينومينولوجيا، ونظريات الفعل، وعلم الاجتماع التأويلي، والانثروبولوجيا التأويلية، والتحليل اللغوي، وقبل كل ذلك الوجودية. أما أصحاب النزعة الموضوعية، فإنهم على العكس، يحاولون الكشف عن العالم الاجتماعي من خلال التركيز على الشروط الموضوعية، وإهمال الخبرة الفردية الذاتية. وقد عارض بورديو أصحاب هذه النزعة، وخاصة دوركهايم، وسوسير، وليفي ستروس، وألتوسير. وجاء مشروعه كمحاولة لإقامة «علاقة جدلية بين الذاتي والموضوعي» (سالم، ١٩٨٩: ١٠٨) أو ما يسميه بورديو «موضوعية الذاتي» (Objectivity of the Subjective) (Bourdieu, 1993 a: 4).

٢ ـ نقد تقسيم العلوم الاجتماعية

يسعى بورديو إلى فهم الحياة الاجتماعية من خلال تعريفات متوازنة، تضع في اعتبارها البنى الثقافية والاجتماعية الموضوعية، جنباً إلى جنب الممارسات والخبرات التي تنشأ عن الأفراد والجماعات (Bourdieu, 1993 a: 3). وعلى هذا الأساس، فقد رفض بورديو تقسيم العلم الاجتماعي إلى سيكولوجيا وسوسيولوجيا وسيكولوجيا اجتماعية، وذهب إلى أن هذه

التقسيمات: «تأسست على خطأ أصلي في التعريف» (بورديو، ١٩٩٥: ٣٢) فالفرد والمجتمع لا بد من أن يشملهما تعريف واحد، لأن كل صور الوجود والفعل لا تتحقق إلا من خلال مؤسسات المجتمع مهما كانت درجة بدائيته، كما أن المجتمع لا يمكن تفريغه من الذوات الفاعلة، وإلا كان سكناً لأشباح «فالكائنات البشرية تضفي معنى على العالم الذي تصنعه.. ومهمة السوسيولوجيا كشف أعمق البنيات الدفينة لمختلف العوالم الاجتماعية.. وكذلك الآليات التي تضمن إعادة إنتاج هذه العوالم، أو تعمل على تغييرها» (فاكان، ٢٠٠٢: ١٧٩).

٣ ـ معارضة الفصل بين النظرية والمنهج

بسبب سيادة النموذج السوسيولوجي الأمريكي من نهاية الحرب العالمية الثانية، انفكت ضفيرة العلم الاجتماعي، وظهرت البحوث السوسيولوجية متخففة من الحمل النظري، ولم ينجح هذا النموذج في حل الألغاز الاجتماعية، ودخلت العلوم الاجتماعية بالجملة في ما سمّي بـ «أزمة التفسير»، وكان سير رايت ميلز أول من واجه هذا النموذج، وسدد له العديد من الطعنات القاتلة. وفي سياق متصل، كان بورديو على وعي بأن تطوير علم الاجتماع، أو العلم الاجتماعي بعد إلغاء التقسيمات، لا بد من أن يعتمد على فلسفة شاملة تعيد اللُّحْمَة بين نظرية ومنهج علم الاجتماع، معارضاً النموذج الأمريكي، المتخفف من النظرية، وكذا النموذج الألماني المتخفف من الحمل الإمبيريقي، مؤكداً الاختلاف النوعي بين العلم الاجتماعي والعلم الطبيعي، فالظواهر الاجتماعية أكثر تعقيداً من الظواهر الطبيعية، فالعلم الاجتماعي يتعامل مع موضوع يفكر ويتكلم، وعندما يسعى عالم الاجتماع إلى انتزاع إشكالياته ومفاهيمه النظرية، فإنه ينتزعها من أفواه الإخباريين (بورديو [وآخرون]، ١٩٩٣: ٤٩).

ثانياً: المخطط العام للنظرية

الممارسة الاجتماعية تمثل الموضوع الرئيسي في سوسيولوجيا بورديو، وبفضله، إلى جانب آخرين «أصبح مفهوم الممارسة الآن أحد المفاهيم الأساسية في البحث الاجتماعي (*Calhoun, Lipuma and Postone*, 1993: 1)، وتكتسب نظرية الممارسة الاجتماعية أهميتها في العلوم الاجتماعية والإنسانية، بسبب قدرتها التفسيرية المتنوعة والملائمة لكشف طبيعة الظواهر الاجتماعية والإنسانية المختلفة، فعن طريقها يمكن تفسير التباينات الاجتماعية والثقافية في آن واحد، كما يمكن تفسير ظاهرات السياسة والاقتصاد والثقافة والدين والفن والعلم... الخ، دون أن تفقد النظرية مصداقيتها، وربما يكون ذلك هو سر تنوّع اهتمامات بورديو البحثية المثيرة للإعجاب، فقد أمسك بمنطق الممارسة، ووضع يده على مجموعة من الأدوات التفسيرية، إلى جانب امتلاكه لرؤية منهجية منفتحة، وهذه الأمور أدت مجتمعة إلى التنوع والثراء الذي يلحظه القارئ في مشروعه العلمي الكبير.

لقد حاول بورديو في نظرية الممارسة أن يقدم حلاً للفجوة بين النظرة الذاتية للعالم الاجتماعي، والنظرة الموضوعية، وانتهى إلى أن العلاقة بين الذاتي والموضوعي علاقة جدلية متداخلة ومتشابكة ومعقدة، وعالم الاجتماع عليه أن يكشف عن طبيعة هذه العلاقة، وكيف تتولد الممارسة تحت تأثير هذه العلاقة. وقد حاول بورديو توضيح كيف

تتمثل الذات الفاعلة الشروط الموضوعية ــ البنيوية، فأنتج مصطلح الهابيتوس (Habitus)، وكيف تؤثر هذه الذات في تلك الشروط، فأنتج مصطلح المجال (Field)، بحيث تصبح الممارسة «محصلة العلاقة الجدلية بين الهابيتوس والمجال، أو هي ناتج تفاعل الهابيتوس والمجال» (Haker [et al.], 1990: 15).

الممارسة الاجتماعية عند بورديو ليست مجرد فعل صادر في الزمن الحاضر، ولكنها فعل موجّه من الماضي، فعل تاريخي، فكما لا بد من أن تتضافر عدة ظروف قبل هطول المطر، فكذلك الممارسة، هي محصلة خبرات مكتسبة أو موروثة، تتضافر لتقييم الواقع المعيش، وتحديد طبيعة الفعل الملائم في لحظة ما، لحظة الممارسة، أو هطول المطر. فالممارسة نشاط إنساني، يقوم به فاعل (Agent)، يمتلك قدرة على صنع الاختلاف، ولكنها ليست قدرة ذات متعالية، وإنما قدرة فاعل نَشِط مُكَافح» (بورديو، ٢٠٠٢: ٣٣). ولذلك، فإن الفاعل عند بورديو هو شخص (Person) محمّل بخبرات متراكمة، رأسمال نوعي، يكتسبه خلال عملية التنشئة والتعليم، يولّد لديه مجموعة من الاستعدادات (Dispositions) تمكّنه من ممارسة الأفعال المختلفة في إطار بنية محددة، وبشكل تلقائي ولاإرادي في معظم الأحيان.

ولكي يستطيع بورديو عبور الفجوة بين هذا الشخص والبنية التي تضمه، أو بمعنى آخر، لكي يكتشف كُنْه العلاقة الجدلية بينهما أو التفاعلات القائمة، قام بتفكيك البناء الاجتماعي إلى مجموعة من المجالات، كالمجال السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والديني، والفني... الخ، وكل مجال من هذه المجالات يحتاج إلى رأسمال نوعي مختلف، والمتفاعلون داخل المجال يمتلكون بالضرورة استعدادات متفاوتة، بتفاوت الرأسمال النوعي، الذي يمتلكونه، وبالتالي فإن علاقات القوة داخل المجال، التي تحدّد حيازة المكانة داخله ترتبط بهابيتوس الأفراد. وما أضافه بورديو، هنا، هو جعل العلاقة الجدلية بين الاستعدادات الذاتية والشروط البنائية، ممكنة التصور والتحقق على أرض الواقع، فالفرد يتعامل مع مجالات، ولا يتعامل مع بناء اجتماعي كلي، وتتحدد قدرة الأفراد ــ الأشخاص ــ على حيازة المكانة داخل هذه المجالات المتنوّعة بمجموعة الخبرات والاستعدادات التي يحملها هابيتوس هؤلاء الأفراد.

ولكن بورديو لا يتوقف في نظريته عند مستوى علاقة الفرد بالبناء، فالممارسة الفردية، ليست الممارسة الوحيدة القائمة، فهناك ممارسات جماعية قائمة في المجتمع، تتم في إطار علاقات القوة، وصور الصراع والعنف الرمزي داخل المجالات، ويكون موضوع هذه الصور: **الحيازة/الإزاحة** جزئية أو كلية.

على أية حال، فلكل مجال الرأسمال النوعي الخاص به الذي يسعى الأفراد/الجماعات/الطبقات إلى امتلاكه، والذي يولّد لدى الأفراد والفئات استعدادات متفاوتة للممارسة، وقد استعان بورديو في نظريته ببعض المصطلحات الاقتصادية ــ السوق، الاستثمار، الإنتاج، التوزيع، الاستهلاك، الرأسمال ــ محاولاً توظيفها بطريقة مختلفة، إلى جانب استخدام أدوات تفسيرية أخرى لفهم الممارسة الاجتماعية فهماً مختلفاً، فكيف تمكّن بورديو من استخدام أدواته التفسيرية الأصيلة؟

ثالثاً: المفاهيم الأساسية للنظرية

١ ـ الهابيتوس (Habitus)

يظهر من سيرة بورديو، وتطور مشروعه العلمي، أنه كان منشغلاً بقضية اللامساواة، التي عاينها وعايشها ـ في المغرب العربي، وفي الريف والحاضرة الفرنسية ـ وأراد أن يفهم: **أولاً**، كيف يمارس الفرد حياته من المهد إلى اللحد، وهو مكبّل بالشروط البنائية المختلفة، **وثانياً**، ينطلق من هذا الفهم، إلى هدفه النهائي، وهو تأسيس مخطط للممارسة التوليدية، والانعكاسية، للتغلّب على صور اللامساواة التي تفرضها النخبة السياسية والاقتصادية على الأفراد والجماعات في المجتمع. وعليه، فإن بورديو حين قام بنحت مفهوم الهابيتوس، كان يحاول الكشف عن المعوقات التي تَحُولُ دون الممارسة التوليدية القوية اللازمة للتغيير، ويحاول وضع الشروط اللازمة للتغلّب على هذه المعوقات.

يعرّف بورديو الهابيتوس بأنه: «مبدأ مولد للاستراتيجية يمكّن الفاعلين من التوافق مع المواقف غير المتوقعة والدائمة التغيّر، نسق من الاستعدادات الدائمة ـ القابلة للتطور والتحول ـ يعمل كل لحظة ـ بشكل لاإرادي غالباً ـ بدمجه للخبرات السابقة كمصفوفة من الإدراكات والتقييمات، ويتيح انجاز مهام لانهائية التنوّع (فاكان، ٢٠٠٢: ١٨٤)، وهو عبارة عن بناء ذهني ومعرفي يمكّن الأفراد من التعامل مع العالم الاجتماعي، وهو منتج تاريخي يتشكّل خلال التنشئة الاجتماعية وبواسطة التعليم، فعبر التنشئة والتعليم يتكون لدى الفرد رأسمال نوعي مخزون يستخدمه بشكل لاإرادي أثناء الممارسات المختلفة. ويختلف مفهوم الهابيتوس عن مفهوم العادة، على رغم تضمّن العادة فيه، حيث إن الأخيرة توصف بالتكرارية والميكانيكية، وهي ذات طابع يعيد الإنتاج ـ فقط ـ بينما الهابيتوس يحمل في ذاته ـ بحكم طريقة تشكله التاريخي ـ «طاقة توليدية قوية قادرة على إعادة التشكيل» (بورديو، ١٩٩٥: ١٩٩).

إن بورديو، كنتيجة لمعارضته تقسيم العلم الاجتماعي، ينظر إلى الهابيتوس من خلال ثلاثة مستويات للرؤية، متكاملة ومتفاعلة مع بعضها البعض: في المستوى **الأول**، يقع هابيتوس الفرد، ثم في المستوى **الثاني** هابيتوس الجماعة المحلية المحيطة بالفرد بداية من الأسرة وجماعة الأقارب، وجماعة الجيران والأصدقاء، حيث يذهب بورديو إلى أن هذه الجماعات تمتلك الهابيتوس الخاص بها: «الناتج عن تماثل ظروف الوجود، الذي يؤدي إلى تآلف الممارسات وانصهار الفردي في الجمعي» (Bourdieu, 1990: 58)، وهو الأمر الذي يتيح للممارسات أن تكون: «متماثلة موضوعياً دون أي حساب أو قصد» (Bourdieu, 1977: 80)، ويظل تأثير هابيتوس الجماعة في الفرد ممتداً إلى نهاية العمر. والمستوى **الثالث** هو هابيتوس المجال، حيث يرى بورديو أن لكل مجال من المجالات القائمة (السياسي، والاقتصادي، والثقافي... إلخ) في المجتمع، الهابيتوس الخاص بها وهو: «عبارة عن مجموعة المهارات والأساليب الفنية والمرجعيات ونظم المعتقدات الواجب توافرها في عضو هذا المجال دون غيره من المجالات» (Bourdieu, 2004: 72)، فالهابيتوس العلمي على سبيل المثال: «يحدد نمط الإنتاج العلمي لجيل من العلماء، يختلف عن الأجيال السابقة واللاحقة» (Bourdieu, 2004: 43).

والفرد القادر على التجديد والتشكيل، في نظرية بورديو، شخص يملك نسقاً من الاستعدادات، يكافح به في الحياة، ويرى أن هذا النسق يتشكّل بفعل التنشئة والتعليم، وهو نسق متغيّر، ويرى أن آلية الكفاح أو ممارسة الكفاح ضد صعوبات الحياة، وضد مختلف أشكال القيود المفروضة على الأفراد في المجتمع، تتخذ ثلاثة مسارات محتملة، يمكن من خلالها فهم طبيعة الممارسة الاجتماعية، لدى الأفراد والجماعات في لحظة تاريخية محددة، ومن ثم يمكن تعديل مسارها. ويذهب بورديو إلى أن هذه المسارات هي: «التوافق الكامل مع الشروط الموضوعية ــ المجالات ــ أو التفريق الجذري بين مصالح الفاعل ومحدّدات الموضوع، أو الموقف السلبي» (بورديو وفاكونت، ١٩٩٧: ٩٣).

تؤدي حالة «التوافق الكامل» إلى الممارسة الاجتماعية العادية (الآلية)، ممارسة لاتقدمية تعبّر، من وجهة نظر بورديو، عن قوة هيمنة الطبقة المسيطرة، فالطبقة المسيطرة تسعى دائماً إلى نزع القدرة التوليدية من هابيتوس الأفراد والجماعات عن طريق التعليم، بحيث تعجز الذوات الفاعلة عن إعادة تشكيل الشروط الموضوعية التي تقع تحت تأثيرها. وهذه العملية تتم كما أوضح بورديو: «عن طريق فكرة مضللة عن المساواة في التعليم، لأنها تتعامل بشكل متساوٍ مع من هم في الأصل غير متساوين» (Hewitt, 2003: 79)، بحيث لا يلتفت إليها الأفراد والجماعات، وغالباً ما يقعون في شرك التمثل اللاإرادي للشروط الموضوعية المانعة لتوليد الممارسات الجديدة. فنظام التعليم يتبنى دائماً ثقافة الطبقة أو الجماعة المسيطرة، فيعمل على ترسيخ أنماط محددة من الاستعدادات، ولمدة طويلة من بداية مشوار التعليم وحتى دخول سوق العمل ــ مما يؤدي إلى تشكيل هابيتوس الأفراد وفقاً لاستراتيجيات الجماعة المسيطرة ــ ويتصف هذا التشكل بالديمومة... بحيث «يساهم في معاودة إنتاج ثقافة الجماعة المسؤولة عن تأسيس وسياسة هذا النظام» (بورديو، ١٩٩٤: ٤٩). وجدير بالذكر أن فكرة بورديو عن التوافق الكامل، جعلت الكثير من نقاده ــ كما سيتضح لاحقاً ــ يرون فيه منظراً للحتمية، التي تجعل الفرد مسلوب الإرادة تجاه القيود البنائية المكبّلة للفعل والممارسة.

٢ ـ المجال (Field (Champ))

المجال الواحد، يعوزه فاعلين، وشبكة من العلاقات المستقلة عن إرادة هؤلاء الفاعلين، ولكل مجال موارده أو رأسماله النوعي الخاص، وهيكل من المراكز والمكانات المتدرجة هرمياً، التي تعبّر عن مستويات القوة داخل هذا المجال، وتحدد مسار الصراع بين الفاعلين الذين يحاولون استثمار الرأسمال النوعي المودع في الهابيتوس الخاص بهم في مجال ما، وذلك بغية الحصول على مكانة رفيعة، وزيادة رصيدهم من الرأسمال النوعي داخل هذا المجال.

لم يستخدم بورديو مفهوم المجال، في دراساته عن المجتمع الجزائري، وبعد اكتمال رؤيته النقدية، توصل إلى أن النظرية السوسيولوجية، كما ذكرنا، تتعامل ــ بصورة خاطئة ــ مع عناصر البناء الاجتماعي في لحظة تاريخية ما بوصفها عناصر يشملها قانون واحد كاف للتفسير، سواء كانت بنائية وظيفية أو بنائية ماركسية. ويذهب بورديو إلى أن المجالات: «تختلف في ما بينها، وكل منها له قانونه الخاص المختلف عن غيره من المجالات الموجودة في الفضاء الاجتماعي، فالصراع بين الفاعلين داخل المجال السياسي يختلف عن الصراع بين

الفاعلين في المجال الديني مثلاً، كما أن المناصب أو المراكز داخل كل مجال تحتاج إلى رأسمال مختلف، والهابيتوس الخاص بالفاعلين المتصارعين على هذه المناصب أو المراكز مختلف كذلك، ومن ثم فإن النظرية البنائية العامة لن تقود إلى تفسير وكشف عن العلاقة بين الممارسة الاجتماعية وعناصر البناء الاجتماعي» (Bourdieu, 1993: 72).

يتضح هنا أن بورديو يقدم مفهوم المجال كأداة تفسيرية وسيطة تربط البناء الاجتماعي بالممارسة الاجتماعية، وتتيح له فهم العلاقات والتفاعلات التي تتم في الحياة الاجتماعية، ومن ثم فقد أصبحت الممارسة الاجتماعية تتم في سياق مستويات بنائية: «فالبناء الاجتماعي إذن هو مجموعة من المجالات المستقلة نسبياً والمتجانسة بنائياً، والمجال الواحد يتوسط البناء الاجتماعي العام والممارسة» (Swartz, 1997: 9).

يذهب بورديو إلى أن المجال هو الفضاء الذي تتم فيه عمليات إنتاج وتوزيع واستهلاك واستثمار مختلف أشكال الموارد الرمزية والمادية، أو بمعنى آخر، المجال هو «ميدان الصراع للتحكّم في الموارد وتحقيق المصالح» (Bourdieu, 1993 a: 6)، صراع بين القادم الجديد الذي يحاول اختراق حدود المجال لحيازة مركز أو منصب داخله، والفاعل المتمركز داخل المجال الذي يحاول الدفاع عن احتكاره للمركز، ويحاول أن يبقي نفسه خارج دائرة المنافسة» (Bourdieu, 1993, b: 72)، وعليه فلا يمكن فهم بنية المجال إلا من خلال الكشف عن: «حالة علاقات القوة بين الفاعلين في المؤسسات التي يضمها هذا المجال في لحظة تاريخية محددة» (Bourdieu, 1993 b: 73).

ومن الطبيعي أن يكون للمجالين السياسي والاقتصادي التأثير الأكبر في كافة المجالات الأخرى التي يشملها البناء الاجتماعي، وكلما قلّت مساحة الحرية في المجتمع أصبح للنخبة الاقتصادية والسياسية هيمنتها الظاهرة والمتزايدة على مختلف المجالات الأخرى. ويحدث ذلك بالتدخل السياسي والاقتصادي المربك للمجالات الأخرى، والعكس صحيح، فكلما زادت مساحة الحرية، قلّ تأثير المجالين السياسي والاقتصادي في باقي المجالات، وتصبح العلاقة تضامنية، جدلية، وليست علاقة متغيّر سياسي أو اقتصادي مستقل، بمتغيّرات ثقافية واجتماعية تابعة.

كما إن المجال ميدان الكفاح، حيث يذهب بورديو إلى أن: «الفاعلين أصحاب المكانات المختلفة يتواجهون داخل المجال في كفاح مستمر، ولكل منهم أهدافه الخاصة؛ البعض يكافح للحفاظ على علاقات القوة المُرْضِيَةِ بالنسبة إليه، والبعض الآخر يكافح من أجل تغيير هذه العلاقات» (Bourdieu, 2004: 35).

مما سبق، يمكن الوقوف على عدة خصائص للمجال، فبنية المجال، بنية تاريخية، حيث إنها تمثل حالة من حالات علاقة القوة بين الفاعلين أو المؤسسات في لحظة تاريخية محددة، ورأس المال الخاص بالمجال هو الذي يمنح الفاعلين المركز الاجتماعي، وكذلك السلطة ــ العنف المشروع (The Legitimate Violence) ــ داخل هذا المجال. وعليه، فإن الصراع دائماً يكون على احتكار رأس المال النوعي الخاص بهذا المجال، بين القادمين الجدد والمسيطرين بالفعل، بمعنى آخر يكون صراع دائم على **الحيازة/الإزاحة**. إلا أنه ينبغي

ملاحظة أن مفهوم الصراع داخل المجالات هو أقرب إلى مفهوم الكفاح والمنافسة، إلا في حالات استثنائية(*)، فالفاعلين في مجال ما يشتركون في عدد مؤكد من المصالح الأساسية في ما بينهم، وإلا فقد المجال شروط وجوده، وأصبح ساحة للحرب. فالصراع داخل المجال، هو مباراة (Game)، لها قواعد متفق عليها بين اللاعبين، وعنف مشروع لإدارة الصراع، وهي قواعد بطبيعتها متغيّرة شأن البنية المتغيّرة للمجال.

على أية حال، فإن علاقات المجال تظهر للوجود بمستويين: «المجال الخاص (محدد النطاق) (The Small-Scale Field)، والمجال العام الواسع النطاق (The Large-Scale Field) (Fowler, 2000: 167)». وسنتوقف قليلاً عند هذين المفهومين لأهميتهما: فالمجال الرياضي، على سبيل المثال، له رأسماله الخاص الذي يقتصر على فاعلين محدّدين (اللاعبين، المدرّبين، المديرين، النقاد المتخصّصين)، ويكون التفاعل في هذا المستوى داخل الدائرة الخاصة للمجال، وتكون الممارسة هنا من النوع الخاص، وتتراتب مكانة الفاعلين وفقاً للرأسمال النوعي (الرياضي) الذي يمتلكونه، ولكن الرياضة كمجال يمكن أن تكون نقطة التقاء مع المجال الاقتصادي (تسويق الرياضة) والسياسي (تسييس الرياضة) والثقافي (تذوّق الرياضة)، وهنا ينتقل المجال إلى المستوى العام، ويصبح المجال الرياضي ساحة للعب والاستثمار النوعي في الوقت ذاته.

وعلى هذا المستوى، يمكن لرجل السياسة أن يستثمر في هذا المجال، وخاصة خلال الأحداث الرياضية الكبرى، بمعنى أن يُطَوِّعَ النشاط الرياضي لتحقيق أهداف سياسية معينة، منها، على سبيل المثال، صرف الانتباه ــ بشكل غير مباشر ــ عن الانشغال والتفكير في المشكلات السياسية والاقتصادية العامة، وتغيير مسار التوتر أو القلق، بحيث يكون موضوعه المشكلة الرياضية، وليست السياسية أو الاقتصادية، ومنها أيضاً استثمار حالة التوحد حول تحقيق الهدف الرياضي، وذلك بوضع الفاعلين في المجال السياسي داخل إطار وإجراءات تحقيق هذا الهدف ــ سرقة الفرح ــ لكسب التأييد السياسي واستعادة الثقة المفقودة. ولرجل الأعمال أن يسعى إلى استثمار الرياضة كمشروع تجاري، يضم الملاعب واللاعبين والجماهير كعناصر لهذا الاستثمار، كما يمكن للجماهير على المستوى العام تذوّق الرياضة والاستمتاع بمشاهدة مبارياتها، وشغل الفراغ، والانشغال الهروبي بها عن الواقع المعيش، كما أن تشجيع الرياضة ينحرف أحياناً ليخلق حالة من التعصب والمنافسة الوهمية، التي تكون الموضوع الرئيسي على موائد الطعام، أو خلال جلسات الوَنْسَة الليلية بين أعضاء الأسرة، وتحتدم في المجادلات المسائية على المقاهي.

(*) عندما يشهد المجال السياسي صراعاً بين قوّتين متناقضتين: دينية مقابل مدنية، مستبدة مقابل متطلّعة إلى الديمقراطية، أو عرقيّة مقابل قومية، جماعة طائفية غالبة مقابل جماعات طائفية أخرى... الخ، وإذا لم يحدث اتفاق على قواعد المنافسة السياسية، تتحول العلاقة بين القوتين إلى علاقة صراعية بالمعنى الكامل للكلمة، تصل أحياناً إلى درجة الإبادة الجماعية، وتخف حدّتها في أحيان أخرى، إذا استطاعت القوة الأعظم شلّ حركة الأخرى، وحجبها عن الشّرعية السياسية، باستخدام صور القهر المختلفة، ولكنّها على العموم تبقى صراعية إلى أن تتفق القوتان على قواعد اللعبة، أما دون ذلك، فكل طرف يسعى إلى نفي الآخر.

وعليه، فإن لكل مجال **رأسماله الرمزي الخاص**، وهو الذي يحدد درجات المكانة وترتيب القوة داخل المجال دون المستوى العام، فليس بوسع أحد الجماهير أو رجل السياسة أو الاقتصاد، أن يدير مباراة رياضية وفقاً لرؤيته، ويصبح بين يوم وليلة مدرباً لفريق رياضي مثلاً. وهذا يعني أنه دون المستوى الخاص داخل مجال ما، يتعذّر تحديد درجات المكانة والرفعة أو الشهرة، ومقدار القوة، لعدم وجود معيار للحكم على الرأسمال الخاص في هذه الحالة، ولعدم وجود تراتب واضح للقوة داخل هذا المجال. ومع ذلك، فمن الشواهد ما يشير إلى محاولات دائمة لإزالة الحدود بين المستويين الخاص والعام داخل المجال الواحد، ويتم ذلك أيضاً في إطار بسط الهيمنة الثقافية والرمزية على كافة جنبات المجتمع.

وقد تنبّه بورديو، كما يرى نيكولا هوايت، إلى إشكالية العلاقة بين المستوى الخاص للمجال، ومستواه العام، ورأى أن تطفّل المجال السياسي والاقتصادي على المجالات المختلفة في المجتمع، يؤدي إلى حالة من التشوّش والارتباك المقصود، لصرف الانتباه، وتفريغ المجالات من قوتها التوليدية (Hewitt, 2003: 62).

والشواهد كثيرة، من كافة المجالات التي يضمها البناء الاجتماعي للحالات التي يصبح فيها المستوى الخاص لمجال من المجالات في حالة تخلّف، بحيث يتدهور الرأسمال النوعي الخاص بهذا المجال، وتتحول علاقات القوة داخل هذا المجال إلى قوة تعسفية، بتَحَوُّرِ العنف المشروع إلى عنفٍ غير مشروع، ويحدث انسداد كامل في قنوات الطاقة التوليدية بفعل هذا العنف غير المشروع، فأصحاب المراكز (شبه الموروثة في هذه الحالة) يَحُولُونَ دون امتلاك أصحاب الرأسمال النوعي ــ القادر على إعادة تشكيل المجال ــ للقوة الكافية التي تتيح لهم انجاز عمليات التشكيل. وعندما يحدث ذلك يفقد هذا المجال دائرة نفوذه، ويقلّ تأثيره تلقائياً في الدوائر التي تلي دائرته الخاصة، ويصبح عامل خصم، وليس إضافة، في معادلة التنمية والتطور في المجتمع، ويمكن للقارئ أن يستنتج، تشخيصاً لحالة مجتمع ما، إذا تدهور المستوى الخاص لمجالات بعينها، كمجال التعليم، والمجال القضائي، والمجال الرقابي والتشريعي... وغيرها من المجالات الحيوية للمجتمع، وإذا أصبحت هذه المجالات منتهكة من قبل المجال السياسي على نحو خاص.

٣ ـ الرأسمال النوعي

يتضح مما سبق، أن لكل مجال رأسمالاً نوعياً خاصاً به، كما أن الأفراد يكتسبون بالتنشئة والتعليم عدة أشكال رئيسية من أنواع الرأسمال. وقد ركّز بورديو على أربعة أشكال منها هي: الرأسمال الاجتماعي، والرأسمال الثقافي، والرأسمال الرمزي، والرأسمال الاقتصادي، وبصفة عامة فإن مفهوم بورديو عن الرأسمال النوعي، وكذلك العلاقات التي تربط بين أشكاله، يعدّ من الأدوات التفسيرية المهمة لفهم الحراك الاجتماعي وصوره وأشكاله وأسبابه، وهو يتميز بقابليته للتطوير والتوسع الدائمين. وتتمثل أهم خاصية للرأسمال النوعي في قابليته للاستثمار والتوظيف للحصول على رأسمال نوعي آخر، عن طريق العلاقات الداخلية التي تربط بينهما بحيث: «إنهما يخدمان بعضهما البعض بصورة معقدة مباشرة وغير مباشرة» (Adkins and Skeggs, 2004: 58)، فبورديو مثلاً، لم ينعم

برأسمال اقتصادي موروث، فهو ينتمي إلى أسرة فقيرة، ولكنه حصل على أكبر قدر من الرأسمال الثقافي عبر التفوّق العلمي. وبعد اعتراف الجماعة العلمية الفرنسية بهذه الجدارة، اكتسب بورديو رأسمالاً رمزياً ـ مكانة رفيعة ـ داخل المجتمع، وفي الوقت نفسه كان كل من الرأسمال الثقافي والاجتماعي والرمزي السبب الرئيسي في ازدهار رأسماله الاقتصادي.

أ ـ **الرأسمال الثقافي**: ينتقل إلى الأفراد بطريقين: **الأول** من خلال الأسرة: «فعن طريق الأسرة يكتسب أنماط التفكير والاستعدادات ونظم المعنى، ويكتسب قيماً محددة للسلوك» (Adkins and Skeggs, 2004: 59)، **والثاني** عن طريق نظام التعليم الذي يعتبره بورديو العائق الثقافي الأكبر، لأنه مسؤول عن إعادة إنتاج الأوضاع الاجتماعية القائمة، فالرأسمال الثقافي المكتسب عبر التعليم: «يعمل على تسويغ قيم وثقافة الطبقة المسيطرة بوصفها الثقافة والقيم الموضوعية للمجتمع بأكمله... وهو نوع من العنف الرمزي الذي لا يلتفت إليه أحد... ويقوم نظام التعليم بتحويل قيم وثقافة الطبقة المسيطرة إلى «معرفة»، ويكافئ الطلاب الذين ينفّذون عمليات اجترار أو إعادة إنتاج هذه القيم والثقافة» (Lin, 2001: 14).

ب ـ **الرأسمال الاجتماعي**: يشير إلى «مجموعة الصلات التي يعقدها الفرد داخل الشبكة الاجتماعية، فالفرد عضو في شبكات اجتماعية مختلفة ومتنوّعة، وهذه الشبكات هي مفتاح الفوائد المادية والرمزية، ولا بد له من أن يمتلك رأسمالاً اجتماعياً يمكّنه من استثمار العلاقات الاجتماعية المتنوعة لزيادة الرأسمال الكلي الخاص به، مثل علاقات الجيرة، والعمل، والقرابة... إلخ» (Field, 2003: 17).

ج ـ **الرأسمال الرمزي**: يشير إلى «درجات المكانة التي يكتسبها الفرد، ويتم التعبير عن هذه المكانة أو القوة الرمزية من خلال علامات التمييز داخل كل مجال، تلك العلامات التي تعمل على إبراز وتأكيد المكانة الاجتماعية» (Field, 2003: 13). أما في ما يتعلق بالرأسمال الاقتصادي، فإن بورديو يرى أن كلاً من الرأسمال النوعي والاجتماعي والثقافي والرمزي، يتداخل بصورة معقّدة مع الرأسمال الاقتصادي، بمعنى أنه دائماً توجد مصلحة اقتصادية كامنة داخل كل رأسمال نوعي.

على أية حال، فإن امتلاك الفرد لرأسمال نوعي، يقابله، وفقاً لنظرية بورديو، مكانة ملائمة أو مكافئة لهذا الرأسمال داخل المجال الوثيق الصلة، وربما تصدق وجهة نظر بورديو على المجتمعات الديمقراطية، ولكن على مستوى المجتمعات الأخرى، ومنها العربية، فإن الشواهد تشير إلى أن المكانة، في أحيان كثيرة، لا تدل على الرأسمال النوعي الذي يمتلكه الفرد. ويرجع السبب إلى أن علاقات القوة التي تمارس داخل مجالات البناء الاجتماعي لهذه المجتمعات، تتحكّم فيها العلاقة المصلحية والقرابية (أحياناً)، فممارسة القوة داخل هذه المجالات يتم بشكل متعسف، إذ يضرب عرض الحائط بالحقوق القانونية للأفراد. إنها ممارسة لعنف مادي ظاهر وملموس وخشن، يقضي في طريقه على أصحاب المهارات الإبداعية الاستثنائية. وهو أمر معوق للتقدم في كل الأحوال.

رابعاً: السوسيولوجيا الانعكاسية

ينطلق بورديو من الفكرة التنويرية الخاصة بأهمية العقل والعلم في إحداث التغيير، وقد أولى اهتماماً دائماً بقضية التعليم، وحذّر من عواقب سيادة نمط العلم القياسي (Normal Science) «حيث يتجه المسيطرون على المجال العلمي نحو أخذ النشاط العلمي في الاتجاه الذي يتناسب مع خبرتهم واهتماماتهم العلمية، وبالتالي فإنهم يحدّدون ما هو صحيح، وما هو مشروع، داخل المجال، كما إنهم يحدّدون شكل المنافسة داخل هذا المجال، لأن البقية الراغبة في الحصول على المكانة داخل المجال في عوز دائم لحملة العلم القياسي، على أن المخاطر التي يواجهها حملة العلم القياسي تدفعهم دائماً إلى الحفاظ على مسافة ثابتة بينهم وبين القادمين من الخلف، ويكون الحفاظ على المكانة من خلال محاولة التجديد الدائم للنموذج» (Bourdieu, 2004: 35).

ولكن هل المجال العلمي يتمتع بالاستقلال والحرية الكافيين، لإنتاج علم أصيل؟ هذه مسألة مهمة، فبورديو يرى أن المجال العلمي يكون أكثر استقلالية كلما كان الصعود فيه يتم على أساس امتلاك الرأسمال العلمي الصافي، بينما يكون الاستقلال أقل إذا كان الصعود فيه على أساس امتلاك الرأسمال البيروقراطي أو الاقتصادي أو السياسي، وعندما يصبح المجال العلمي، في حالة تبعية «تكون المنافسة ناقصة، ويقحم الفاعلون قوى غير علمية في الصراعات العلمية، وبالعكس، بقدر ما يكون مستقلاً يكون قريباً من منافسة نقية ممتازة، وتكون الرقابة علمية، وتستبعد تدخل قوى اجتماعية وضغوطات اجتماعية أخرى» (سالم، ١٩٩٩: ٢٧ ــ ٣٣).

وعليه، فإن بورديو يحدد نوعين من الرأسمال العلمي يحدث بينهما الصراع الدائم في المجال العلمي: رأسمال علمي صاف، ورأسمال علمي مؤسساتي، «ولهذين النوعين من الرأسمال قوانين للتراكم مختلفة: الرأسمال العلمي الصافي، يكتسب بشكل أساسي من خلال المساهمات المعترف بها في تقدم العلم والاختراعات أو الاكتشافات، أما الرأسمال العلمي المؤسسي فيكتسب من خلال الاستراتيجيات السياسية... وأصحابه ليسوا بالضرورة الأفضل من زاوية المعايير العلمية» (سالم، ١٩٩٩: ٢٩). المجال العلمي الأصيل (Genuine Scientific Field) عند بورديو هو المجال الذي يتيح للفاعلين قدراً أكبر من الاستقلالية والحرية في الممارسة العلمية، والتحكّم في شروط المنافسة العلمية داخل المجال لصالح التقدم العلمي، وبالتالي فإن العالم الأصيل لدى بورديو هو الفاعل الذي يسعى دائماً نحو الاستقلالية والحرية، الذي يسعى دائماً نحو تحقيق مصلحة المجال العلمي المتخصّص به.

فما هذه الشروط التي تمنح الحرية والاستقلال للمُنْتِج والمنتجات العلمية؟ يذهب بورديو إلى أن العالم عليه أن يسعى دائماً إلى تحقيق الممارسة الانعكاسية (Reflexive Practice) طوال مشواره العلمي، وأن يكون هدفه الدائم هو تحقيق أكبر قدر من الانعكاسية في عمله، حيث إن الممارسة الانعكاسية تقدم البدائل والطرق اللازمة لتغيير الشروط الموضوعية في اتجاه اكتساب المزيد من الحرية، دون تأثيرات سياسية واقتصادية مكبّلة للعمل العلمي.

ويلاحظ القارئ أن بورديو يمتلك مفهوماً خاصاً لاستقلال العلماء، يختلف عن

المفاهيم التي أنتجتها الثقافة الغربية، التي تحدد دور العلماء والمثقفين، فهو يختلف مع المفهوم اليساري (الرفيق) (Fellow Traveler)، ومع مفهوم غرامشي عن «المثقف العضوي»، وكذلك مع مفهوم سارتر لـ «المفكر الشامل»، فهو ينادي بعد نقد هذه المفاهيم، إلى نوع من «الاستقلال الممكن»، ويطالب العلماء الاجتماعيين بتطوير أدواتهم المنهجية والنظرية، لإحداث تدخل جمعي، وإنتاج علم نقدي مستقل عن المصالح السياسية والاقتصادية لأية طبقة من الطبقات، دون أن يتطابق مفهومه مع مفهوم كارل منهايم عن «المثقف اللاطبقي»، حيث تختلف رؤية بورديو عن منهايم، في أمر جوهري، يتمثل في أن منهايم قدم نمط المفكر اللاطبقي، مدّعياً أنه نمط موجود بالفعل، بينما بورديو يرى أن هذا النمط ممكن الوجود (بشروط).

على أية حال، فإن بورديو يذهب إلى أن تحقيق الوعي الانعكاسي، وبالتالي إنتاج ممارسة علمية أصيلة، يتم باتباع ثلاث خطوات أساسية: يتم **أولاً**، «بالسيطرة على القيم والاستعدادات والاتجاهات والتصوّرات المسبقة المستقرة في الهابيتوس الخاص بالباحث، بمعنى أن يمتلك الباحث رؤية نقدية خالصة تجاه موضوع البحث... وتبدأ عملية السيطرة بالقدرة على اختيار الموضوع، وتحديد المفاهيم، والوعي بالشروط الإبستيمولوجية اللازمة لإنجاز البحث جنباً إلى جنب الشروط الاجتماعية اللازمة لذلك» (Swartz, 1997: 271). ويحذّر بورديو الباحث من الاتحاد مع موضوع بحثه إلى درجة أن يقع في شرك المجاملة التي ينتظرها الجمهور، ويذهب إلى أن الباحث متى قبل بتحديد موضوعه وفقاً لطلب الجمهور، أو إرضاءً له، فإنه: «ينصب نفسه نبياً صغيراً» (بورديو [وآخرون]، ١٩٩٣: ٣٣)، ولذلك، فإن بورديو يحذّر من «عدوى المعرفة الاجتماعية العفوية» المتراكمة في الهابيتوس التاريخي للباحث عن طريق القيم والاتجاهات والتصوّرات المسبقة، ويشدّد على أن الوعي العلمي يبدأ من نقطة عزل الذات التاريخية عن موضوع البحث، ولا بد من أن يمارس الفاعل هذا الوعي أو يكتسبه عن طريق: «بذل المزيد من التنبه المنهجي كسلاح لتفادي الإصابة بهذه العدوى» (بورديو [وآخرون]، ١٩٩٣: ٢٨). **وثانياً**، بامتلاك الوعي الفلسفي بالعلاقة بين تخصّصه والعلوم الوثيقة الصلة، حيث يذهب بورديو إلى أن علم الاجتماع ــ بحكم طبيعته ــ «من الصعب أن يشهد ومضات نظرية تمثل قطيعة أو انقطاعات متكررة في العلم، كما هو الأمر في العلوم الطبيعية» (بورديو [وآخرون]، ١٩٩٣: ٣٧)، ولذلك فإن على الباحث أن يكون واعياً بموقع السوسيولوجيا وعلاقتها بمختلف المجالات: «لأن السوسيولوجيا هي في النهاية منتج رمزي خاص، يتوسط المنتجات العلمية الخالصة، والمنتجات السياسية، أو بمعنى آخر السوسيولوجيا بحكم طبيعتها تمثل موقعاً متوسطاً بين مجال العلم الخالص (العلوم الطبيعية) والمجال السياسي» (Swartz, 1997: 272). **وثالثاً**، بالقدرة الدائمة على اختبار وفحص الشروط الإبستيمولوجية والاجتماعية اللازمة للتحول نحو الموضوعية العلمية في ممارسة البحث. وبناء على ذلك، فإن الممارسة الانعكاسية هي في النهاية: استراتيجية للباحث، يقترب منها أو يبتعد، كلما اقترب أو ابتعد عن ممارسة خطواتها، فالاقتراب من الانعكاسية يعني تحرّر الباحث من الهابيتوس التاريخي، وتفعيل الهابيتوس العلمي (لحظة الاختيار)، والوعي بعلاقات مجال السوسيولوجيا بباقي المجالات (معرفة الممكن)، والتوصل إلى الموضوعية العلمية (التحقق)، وهذه الممارسة ينتج منها العلم الأصيل، من وجهة نظر بورديو.

خاتمة

إن مشروع بورديو العلمي يمكن تأصيله إلى جذر واحد، وهو إحساسه الإنساني المرهف بعدم تحقق المساواة في المجتمع الحديث، ومن هذا المنطلق حاول معارضة الفكر الاجتماعي السائد ـ الذي يدعم بصورة أو بأخرى أشكال اللامساواة في المجتمع ـ ثم عمل على استثمار نتائج هذه المعارضات في تطوير نظرية اجتماعية، تكشف العلاقة بين الذاتي والموضوعي، وتعيد التماسك إلى العلم الاجتماعي، كما أنها تعيد التواؤم بين المقولات النظرية والإجراءات المنهجية.

وقد انشغل بورديو بالفرد والجماعة والطبقة في آن واحد، لإعادة فهم وتفسير الحياة الاجتماعية على نحو مختلف، وقد نجح بالفعل في طرق أبواب الفردية والجماعية والطبقية، وأبقى على هذه الأبواب، وكذا النوافذ، مفتوحة لإعادة النظر والتفنيد والتطوير، وربما تكون هذه النقطة بالذات هي الإسهام الحقيقي الذي قدمه بورديو إلى العلم الاجتماعي، فقد وضع أسس نظرية تقدم فرصاً غير محدودة للتعمّق في ممارسة العلم الاجتماعي، والتعمّق في فهم الظواهر الإنسانية بصفة عامة. وبسبب ذلك ينشغل علماء الاجتماع المعاصرون بمشروع بورديو، ليس فقط من أجل نقده وتقييم مكانة هذا المشروع في النظرية السوسيولوجية المعاصرة، ولكن، وهذا الأهم، من أجل الانطلاق من هذه الأسس إلى إعادة إنتاج النظرية الاجتماعية بصورة مختلفة.

وقد ذكرنا للقارئ أن بورديو كان يحاول دائماً كشف عوائق وموانع الممارسة الاجتماعية التوليدية، ووضع بدائل للتغلب على هذه العوائق. ولكن الواقع أن مشروع بورديو لم يحقق هدفه بالكامل ـ شأن أي مشروع علمي ـ فقد اهتم بورديو بالتنظير للممارسة الاجتماعية، وكشف العوائق التي تضعها الطبقة المسيطرة في طريق الممارسة التوليدية، ولكنه لم يُنَظِّرْ للبدائل على الرغم من إشاراته العديدة إلى هذه البدائل، وخاصة في ما يتعلق بدور المثقف أو المفكر المنخرط في حركة اجتماعية تهدف إلى التغلب على سيطرة الجماعات والطبقات الحاكمة في المجتمعات الحديثة، فقد حدّد بورديو أبعاد الصراع الدائم بين النخبة والغالبية، واهتم بكشف ممارسات النخبة لإحكام السيطرة، ولم يجب عن سؤال الغالبية الدائم: إذا كان الأمر كذلك فما هو العمل؟

ومن أكثر الانتقادات الموجهة إلى النظرية، ما يتعلق بمفهوم الهابيتوس، أو بمعنى آخر، انتقاد نظرة بورديو لمحدودية دور الجوانب الذاتية في الممارسة. ويذهب نيكوس موزاليس (N. Mouzels) إلى أن: «بورديو على الرغم من تضفيره الذاتي بالموضوعي، فقد كبّل الفاعلين بقيود حتمية، تجعل من الصعب عليهم أن يغيّروا الشروط الموضوعية المفروضة عليهم» (Mouzelis, 1995: 124). فالعناصر المشكلة للهابيتوس هي التنشئة الاجتماعية والتعليم، ولم يعط بورديو أهمية كبيرة سوى إلى التعليم، ثم عاد وشدّد على تحكم الجماعة المسيطرة على التعليم بأسلوب يحدّ من قدرة الأفراد والجماعات على تغيير الأوضاع السائدة، ويتفق مع هذا النقد كريغ كاليهن، حيث يذهب إلى أن: «بورديو ترك أسئلة مهمة لم يجب عنها في نظرية الممارسة، فقد ذكر كثيراً كيف يعيد التعليم إنتاج الوضع الطبقي،

وتجاهل مبدأ تكافؤ الفرص، وجدارة الأفراد» (*Calhoun, Lipuma and Postone*, 1993: 134).

كما أن العلاقة بين الهابيتوس والعادة، من العلاقات الغامضة في نظرية بورديو، وإحدى نقاط ضعفها، فبورديو لم يوضح بشكل كافٍ كيف تتولد الممارسة الجديدة، أو بمعنى آخر كيف تنطلق الطاقة التوليدية للهابيتوس، وركّز في تحليلاته على الحالات التي تتعطل فيها هذه الطاقة، أو الحالات التي تتوقف فيها قدرة الأفراد عن محاولة تغيير واقعهم، وأفاض في توضيح «كيف يعيد الفاعل إنتاج المحتوى الموضوعي ذاته الذي ليس له عليه سيطرة» (Bourdieu, 1977: 79)، وبسبب هذا الغموض يذهب بعض النقاد إلى القول بحتمية بورديو في تصوّر شروط إعادة الإنتاج، وتشاؤمه حيال التجديد.

ويمكن القول إن نقطة الضعف، في هذا الجانب من نظرية بورديو، ترجع إلى غموض فكرة الاستعدادات التي يكتسبها الفرد في إطار الأسرة، فالاستعداد هو الطريق لتوليد الممارسة المغايرة أو الجديدة، ولكن كيف تنشأ هذه الاستعدادات؟ وهل هي نفسية أم اجتماعية؟ أو هل هي جدارة فردية أم جماعية؟ هذه الأسئلة لم يقدم لها بورديو إجابات حاسمة، وعلى رغم ذلك، فلا يمكن القول إن بورديو لم يكن واعياً بهذا التضافر، لأن مفهوم الهابيتوس لديه يثبت العكس، غير أنه: «قلل من أهمية العامل النفسي والقيمي لدى الفرد، واعتبره عاملاً ثانوياً في تراتبية القوة» (Ignatow, 2009: 99).

على أية حال، فإننا في هذا المقال، حاولنا ملامسة مخطّط نظرية الممارسة المبسوط على شاطئ بورديو، ولكن خلف الشاطئ توجد تضاريس وعرة تشبه منطقة البيرينيه الجبلية التي ترعرع بورديو على سفوحها، وهو محاولة للإبحار نحو هذا الشاطئ، وليس المضي إلى أبعد من ذلك، والهدف إثارة الانتباه، ودعوة إلى وضع مشروع بورديو العلمي الموضع اللائق به داخل النظرية السوسيولوجية التي يتم تداولها في مؤسسات البحث العربية، بوصفه مشروعاً يجسد باحثاً ميدانياً ومُنَظِّراً من الطراز الرفيع □

المراجع

بورديو، بيير (١٩٩٤). **العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي**. ترجمة نظير جاهل. بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

بورديو، بيير (١٩٩٥). **أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي**. ترجمة إبراهيم فتحي. القاهرة: دار العالم الثالث.

بورديو، بيير (٢٠٠٢). **بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية**. ترجمة أحمد حسان. القاهرة: دار ميريت للنشر والمعلومات.

بورديو، بيير وج. د. فاكونت (١٩٩٧). **أسئلة علم الاجتماع في علم الاجتماع الانعكاسي**. ترجمة عبد الجليل الكور. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر. ص ٩٣.

بورديو، بيير [وآخرون] (١٩٩٣). **حرفة علم الاجتماع**. ترجمة نظير جاهل. بيروت: دار الحقيقة.

الخولي، يمنى طريف (٢٠٠٠). **فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول ـ الحصاد ـ الآفاق المستقبلية**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. (عالم المعرفة؛ ٢٦٤)

سالم، علي (١٩٨٩). «بورديو، التنبؤ، الموضوعية، الذاتية: نحو انتروبولوجيا كلية.» **كتابات معاصرة** (بيروت): السنة ١، العدد ٤. ص ١٠٨.

سالم، علي (١٩٩٩). «سلطة إنتاج الرأي ــ بيار بورديو: الحقل العلمي وفكرة البدائل.» **كتابات معاصرة** (بيروت): السنة ١٠، العدد ٣٧، أيار/مايو ــ حزيران/يونيو. ص ٢٧ ــ ٣٣.

فاكان، لويك ج. د. (٢٠٠٢). «نحو علم ممارسة اجتماعي: بنية سوسيولوجيا بورديو ومنطقها.» ترجمة أحمد حسان. **مجلة فصول** (الهيئة المصرية العامة للكتاب): العدد ٦٠. ص ١٧٩ و١٨٤.

Adkins, Lisa and Beverley Skeggs (eds.) (2004). *Feminism after Bourdieu*.

Bourdieu, Pierre (1977). *Outline of a Theory of Practice*. Translated by Richard Nice. Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press. (Cambridge Studies in Social Anthropology; 16)

Bourdieu, Pierre (1990). *The Logic of Practice*. Translated by Richard Nice. Stanford, CA: Stanford University Press.

Bourdieu, Pierre (1993 a). *The Field of Cultural Production: Essays on Art and Literature*. Edited and introduced by Randal Johnson. Cambridge, UK: Polity Press.

Bourdieu, Pierre (1993 b). *Sociology in Question*. Translated by Richard Nice. London; Thousand Oasks, CA: Sage. (Theory, Culture and Society)

Bourdieu, Pierre (2004). *Science of Science and Reflexivity*. Translated by Richard Nice. Chicago, IL: Chicago University Press.

Calhoun, Craig, Edward LiPuma, and Moishe Postone (1993). *Bourdieu: Critical Perspectives*. Chicago, IL: Chicago University Press.

Field, John (2003). *Social Capital*. London; New York: Routledge.

Fowler, Bridget (ed.) (2000). *Reading Bourdieu on Society and Culture*. Oxford: Blackwell Publishers.

Haker, Richard [et al.] (eds.) (1990). *An Introduction to the Work of Pierre Bourdieu: The Practice of Theory*. London: Macmillan Press.

Hewitt, Nicholas (ed.) (2003). *The Cambridge Companion to Modern French Culture*. Cambridge, MA: Cambridge University Press. (Cambridge Companions to Culture)

Ignatow, Gabriel (2009). «Sociology of Morality and Bourdieu's Habitus.» *Sociological Inquiry*: vol. 79, no. 1, February. p. 99.

Lin, Nan (2001). *Social Capital: A Theory of Social Structure and Action*. Cambridge, MA: Cambridge University Press. (Structural Analysis in the Social Sciences; 19). p. 14.

Mouzelis, Nicos (1995). *Sociological Theory: What Went Wrong?:Diagnosis and Remediers*. London; New York: Routledge.

Ritzer, George and Douglas J. Goodman (1996). *Modern Sociological Theory*. Singapore: McGraw Hill.

Swartz, David (1997). *Culture and Power: The Sociology of Pierre Bourdieu*. Chicago, IL: Chicago University Press.